قصَّة إبراهيم

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

رَبِّ أَعِنْ

إبراهيم . . خليل الرحمٰن. . . أحد أولي العزم من الرسل كرّمه رب العالمين، فجعل إحدى سور القرآن الكريم تحمل اسمه أي: «سورة إبراهيم» وولد عليه السلام في قرية من قرى العراق.

وقد اختلف في اسم أبيه، فقيل: آزر. وقيل: تارح. وإن اسم آزر الوارد في القرآن الكريم هو عمُّه على الأرجح، وكان يناديه ويقول له: يا أبت. وهو الذي ربَّاه بعد أن مات أبوه وهو صغير.

وأيًا ما كان، فإنَّ إبراهيم نشأ في بيئة تعبد التماثيل. وكان آزر يعمل في صناعتها ونحتها. ثم يبيعها للناس لعبادتها.

وحينما كان إبراهيم صغيراً، كان يلعب بهذه التماثيل، ويعبث بها ويقوم بتخريبها. ويركب على ظهور الكبار منها، كما يُركب الحصان والحمار والبغل والجمل، فيجعلها آلة ركوب يلهو ويلعب على ظهورها.

وكلما رآه آزر ينهاه عن اللَّعب بها، ويمنعه من ذلك. فيسبِّب لإبراهيم الضيق لما يقوله آزر من أنه يجب احترامها وعبادتها.

وفي أحد الأيام وبينما كان آزر يقوم بصناعة التماثيل كعادته. جاءه إبراهيم وقال له: ما هذه يا أبي؟

قال آزر: هذه تماثيل الآلهة يا إبراهيم.

فقال إبراهيم: أو تصنعها يا أبي ليعبدها الناس؟

قال آزر: نعم، يا بني .

قال إبراهيم: كيف تقوم بصناعتها ويقوم الناس بعبادتها؟

فلم يُجِبْ آزر.

وكبر إبراهيم في هذه البيئة الوثنية، حتى أصبح فتى يافعاً. وبنو قومه على ما هم عليه من عبادة التماثيل. ولهم معبد كبير يجلُّه الجميع ويحترمه، وبداخله تماثيلهم الكثيرة التي يعبدون.

وهذه التماثيل تمثِّل معبوداتهم من النجوم والكواكب وغيرها من المقدَّسات لديهم.

فأدرك إبراهيم بفطرته أنَّ تلك المعبودات من النجوم والكواكب والشمس والقمر التي يعبدونها ويجلّونها بالتقديس، ما هي إلَّا مخلوقات من مخلوقات الله فكيف تُعبد؟

قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَآ إِبْرَٰهِيمَ رُشْدَهُۥ مِن قَبْلُ وَكُنَّا بِهِۦ عَٰلِمِينَ﴾ [الأنبياء: 51].

وابتدأت المحاورات والمجادلات بين إبراهيم وأبيه حيناً، وبين بني قومه أحياناً. وفي محاوراته كان يلجأ إلى العظة في كثير من الأحيان .

ولما لم تنفع معهم، لجأ إلى إقامة الحجة العمليَّة عليهم لعلَّهم يرشدون لأمر الله.

ومن هذه المحاورات تلك المحاورة التي دارت بينه وبين آزر. ومفادها أنه في أحد الأيام وبينما آزر يقوم بصناعة التماثيل ويجهِّزها ليبيعها، إذا بإبراهيم يأتيه ويحاوره حول ما يفعل.

ويقول له: ﴿أَتَتَّخِذُ أَصْنَامًا ءَالِهَةً﴾ [الأنعام: 74].

قال آزر: نعم.

قال إبراهيم: ﴿إِنِّيٓ أَرَىٰكَ وَقَوۡمَكَ فِي ضَلَٰلٖ مُّبِينٖ﴾ [الأنعام: 74]. فلم يرغب آزر في سماع ما يقوله إبراهيم.

ثم أضاف إبراهيم: ﴿يَٰٓأَبَتِ لِمَ تَعۡبُدُ مَا لَا يَسۡمَعُ وَلَا يُبۡصِرُ وَلَا يُغۡنِي عَنكَ شَيۡـٔٗا﴾ [مريم: 42]. فكان آزر لا يأتي بجواب. فما كان من إبراهيم إلا أن استمرَّ بحديثه وقال: ﴿يَٰٓأَبَتِ إِنِّي قَدۡ جَآءَنِي مِنَ ٱلۡعِلۡمِ مَا لَمۡ يَأۡتِكَ فَٱتَّبِعۡنِيٓ أَهۡدِكَ صِرَٰطٗا سَوِيّٗا﴾ [مريم: 43].

بهذا اللين وهذه الدعوة دعا آزر، لعله يتبيَّن الصواب من الخطأ، الذي يفعله من صناعته للتماثيل وبيعها للعبادة، وأن هذا الأمر ما هو إلَّا من وسوسات إبليس ومن عبادته. فكان يقول له: ﴿يَٰٓأَبَتِ لَا تَعۡبُدِ ٱلشَّيۡطَٰنَۖ إِنَّ ٱلشَّيۡطَٰنَ كَانَ لِلرَّحۡمَٰنِ عَصِيّٗا﴾ [مريم: 44].

فكان يخاف على من ربَّاه، غضب الله. وكان يحبُّه كثيراً، لأنَّه تربَّى في أحضانه. ويخاف عليه إن بقي على فعله وعناده، أن يمسَّه عذاب من نار جهنم. فقال له: ﴿يَٰٓأَبَتِ إِنِّيٓ أَخَافُ أَن يَمَسَّكَ عَذَابٞ مِّنَ ٱلرَّحۡمَٰنِ فَتَكُونَ لِلشَّيۡطَٰنِ وَلِيّٗا﴾ [مريم: 45].

مع كل هذا الكلام اللَّين الطيِّب الذي سمعه آزر، غضب وثار وقال لإبراهيم: ﴿أَرَاغِبٌ أَنتَ عَنۡ ءَالِهَتِي يَٰٓإِبۡرَٰهِيمُۖ لَئِن لَّمۡ تَنتَهِ لَأَرۡجُمَنَّكَۖ وَٱهۡجُرۡنِي مَلِيّٗا﴾ [مريم: 46].

رغم هذا الجواب القاسي تمالك إبراهيم الحليم الرشيد نفسه، وخاطب آزر بذلك الودِّ فقال له: ﴿سَلَٰمٌ عَلَيۡكَۖ سَأَسۡتَغۡفِرُ لَكَ رَبِّيٓۖ إِنَّهُۥ كَانَ بِي حَفِيّٗا﴾ [مريم: 47].

فكان إبراهيم بارًا بأبيه، حنوناً رحيماً فاعتمد في حواره معه لين الجانب، عسى أن ينفع. واستغفر له الله عن شركه.

ولكن عندما علم أنه مصرٌّ على موقفه بعد أن دعاه إلى الله المرَّة تلو الأخرى. وتبيّن له أنه من أهل النار، وأنه عدو لله تبرَّأ منه ومن فعله.

قال تعالى: ﴿وَمَا كَانَ ٱسْتِغْفَارُ إِبْرَٰهِيمَ لِأَبِيهِ إِلَّا عَن مَّوْعِدَةٍ وَعَدَهَآ إِيَّاهُ فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُۥٓ أَنَّهُۥ عَدُوٌّ لِّلَّهِ تَبَرَّأَ مِنْهُ إِنَّ إِبْرَٰهِيمَ لَأَوَّٰهٌ حَلِيمٌ﴾ [التوبة: 114].

الحوار مع قومه ومحاجَّته لهم بالأمثلة العمليَّة:

اختار الله إبراهيم ليكون خليله: والخلُّة شدَّة الحبِّ. وحتى إنَّ اسم إبراهيم معناه: الأب الرحيم.

فهذا الحبُّ كان له عدَّة وجوه. ومن هذه الوجوه طاعة الله فيما أمره. وكذلك دفاعه عن ربِّه بالأمثلة العمليَّة منذ بداية حياته.

بعض الأمثلة:

1 - عبادة الكواكب:

كان قومه يعبدون الكواكب والنجوم، ويتَّخذون لها التماثيل في المعابد. وقد أراد إبراهيم أن يأتي قومه بالحجَّة الدامغة عليهم ليبيِّن لهم أن ما يتَّخذونه من عبادة ليس بشيء.

فانتظر ليلة سماؤها صافية، تتلألأ فيها النجوم. فرأى بين النجوم كوكباً كبيراً في وسط السماء ظاهراً يراه الجميع من بني قومه. فقال على مسمع منهم: ﴿هَٰذَا رَبِّى﴾ [الأنعام: 76].

وظنَّ قومه أنه أحد العابدين لهذا الكوكب. ولكنه ادَّعى ذلك ليبيِّن

لهم بالبرهان العمليّ عدم جدوى العبادة لهذا الكوكب أو لغيره من مخلوقات الله.

وإذا بهذا الكوكب يتوارى بعد عدَّة ساعات، فلما غاب عن عينه قال: ﴿لَآ أُحِبُّ ٱلْآفِلِينَ﴾ [الأنعام: 76].

وإذا بالقمر يظهر في تلك الليلة المقمرة.

فقال: ﴿هَٰذَا رَبِّي﴾ [الأنعام: 77].

وظنَّ قومه أنه انتقل من عبادة الكواكب إلى عبادة القمر.

ولكن عندما غاب القمر وتوارى، إذا بإبراهيم يتنصَّل من عبادة القمر أيضاً ويقول: ﴿لَئِن لَّمْ يَهْدِنِي رَبِّي لَأَكُونَنَّ مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلضَّآلِّينَ﴾ [الأنعام: 77]، وكأنَّه بهذا يعرّض بهم ويشير إلى أنهم ضالُّون أضاعوا الحقَّ ولم يصلوا إليه.

وبعد قليل انتهى الليل ودخل النهار وبزغت الشمس. انتهز إبراهيم الفرصة، ونظر إلى الشمس المشرقة، وقال أمامهم: ﴿هَٰذَا رَبِّي هَٰذَآ أَكْبَرُ﴾ [الأنعام: 78].

وعندما غابت الشمس تبرَّأ من كل ما يعبدون وقال لقومه: ﴿يَٰقَوْمِ إِنِّي بَرِيٓءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ﴾ [الأنعام: 78]؛ لأنَّه وجد ما يعبدون يذهب ويأتي، والإله لا يصح في العقل أن يتَّصف بالحركة، والسكون، والذهاب، والغياب لأنه ربما احتاجه عابده فإذا كان غائباً فكيف يجيب داعيه؟!.

فأقام لهم الدليل الحسِّيَّ على عدم استحقاق المذكورات العبادة، وأراهم باليقين العمليّ أنَّ عبادتهم لكل المعبودات التي يعبدونها خطأ فادح. وأعلن إيمانه بوحدانيَّة الله على الملإ أمام قومه.

قال تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ نُرِيٓ إِبْرَٰهِيمَ مَلَكُوتَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَلِيَكُونَ

مِنَ ٱلْمُوقِنِينَ ﴿٧٥﴾ فَلَمَّا جَنَّ عَلَيْهِ ٱلَّيْلُ رَءَا كَوْكَبًا قَالَ هَٰذَا رَبِّي فَلَمَّآ أَفَلَ قَالَ لَآ أُحِبُّ ٱلْآفِلِينَ ﴿٧٦﴾ فَلَمَّا رَءَا ٱلْقَمَرَ بَازِغًا قَالَ هَٰذَا رَبِّي فَلَمَّآ أَفَلَ قَالَ لَئِن لَّمْ يَهْدِنِي رَبِّي لَأَكُونَنَّ مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلضَّآلِّينَ ﴿٧٧﴾ فَلَمَّا رَءَا ٱلشَّمْسَ بَازِغَةً قَالَ هَٰذَا رَبِّي هَٰذَآ أَكْبَرُ فَلَمَّآ أَفَلَتْ قَالَ يَٰقَوْمِ إِنِّي بَرِيٓءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ ﴿٧٨﴾ إِنِّي وَجَّهْتُ وَجْهِيَ لِلَّذِي فَطَرَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ حَنِيفًا وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿٧٩﴾﴾ [الأنعام: 75-79].

وبعد أن أبطل ألوهيَّة الأصنام والكواكب بالأدلَّة النظرية انتقل إلى الأدلَّة العلميَّة الملزمة.

2 - **تكسير الأصنام:**

دعا إبراهيم قومه بالوعظ حيناً وبالوعيد أحياناً. ومن محاورته مع قومه مثلاً قوله لهم: ﴿مَا هَٰذِهِ ٱلتَّمَاثِيلُ ٱلَّتِيٓ أَنتُمْ لَهَا عَٰكِفُونَ ﴿٥٢﴾ قَالُوا۟ وَجَدْنَآ ءَابَآءَنَا لَهَا عَٰبِدِينَ ﴿٥٣﴾ قَالَ لَقَدْ كُنتُمْ أَنتُمْ وَءَابَآؤُكُمْ فِي ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٥٤﴾ قَالُوٓا۟ أَجِئْتَنَا بِٱلْحَقِّ أَمْ أَنتَ مِنَ ٱللَّٰعِبِينَ ﴿٥٥﴾ قَالَ بَل رَّبُّكُمْ رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ٱلَّذِي فَطَرَهُنَّ وَأَنَا۠ عَلَىٰ ذَٰلِكُم مِّنَ ٱلشَّٰهِدِينَ ﴿٥٦﴾﴾ [الأنبياء: 52-56].

وبعد أن جادلهم طويلاً ولم ينفع معهم الكلام المقنع، أراد أن يأتيهم بالبرهان العمليّ على بطلان عبادتهم. فقال أمام بعضهم: ﴿وَتَٱللَّهِ لَأَكِيدَنَّ أَصْنَٰمَكُم بَعْدَ أَن تُوَلُّوا۟ مُدْبِرِينَ﴾ [الأنبياء: 57].

وانتهز يوم عيدهم، وكان من عادتهم تقديم القرابين والذبائح والهدايا لهذه التماثيل، للتقرُّب منها بزعمهم.

ومن عادتهم قضاء الليل بعد تقديم القرابين، في مكان بعيد عن معبدهم، الذي يضم تلك التماثيل. وجرت العادة أن يخرج إلى ذلك الاحتفال كل أهل المدينة.

وكان من بين الخارجين آزر صانع التماثيل، وأثناء خروجه ألحّ على إبراهيم بالخروج معهم للاحتفال بالعيد.

ولكن إبراهيم عرف كيف يتهرَّب منهم. فرفع رأسه إلى السماء في تلك الليلة الصافية، ونظر نظرة في النجوم، وأخبرهم أنه مريض بسبب إعراضهم عن الله وإقبالهم على عبادة مخلوق لا يسمع ولا يبصر. وقال لقومه: ﴿إِنِّي سَقِيمٌ[1]﴾ [الصافات: 89].

قال تعالى: ﴿فَنَظَرَ نَظْرَةً فِي ٱلنُّجُومِ ﴿٨٨﴾ فَقَالَ إِنِّي سَقِيمٌ ﴿٨٩﴾ فَتَوَلَّوْا عَنْهُ مُدْبِرِينَ ﴿٩٠﴾ فَرَاغَ إِلَىٰٓ ءَالِهَتِهِمْ فَقَالَ أَلَا تَأْكُلُونَ ﴿٩١﴾ مَا لَكُمْ لَا تَنطِقُونَ ﴿٩٢﴾﴾ [الصافات: 88-92].

وبهذه الحجَّة استطاع إبراهيم أن ينفرد عن باقي الناس من بني قومه، لتنفيذ ما عزم عليه في نفسه، مما يكون دليلاً واضحاً على أن الأصنام لا يصحُّ أن تكون آلهة.

تُرى ما هو هذا الشيء الذي من أجله فعل إبراهيم ذلك؟

لقد فعل ذلك ليكيد لأصنامهم، ويفهمهم بالبرهان العمليّ أن هذه الأصنام والتماثيل لا تستطيع نفعاً لأحد ولا ضرًّا. حتى إنها لا تستطيع أن تمنع الضرَّ عن نفسها، إذا ما تعرَّضت للأذى. فكيف يعتقد الناس أنها تجلب لهم نفعاً، أو تمنع عنهم ضرًّا؟!.

وحينما أخبرهم أنه مريض في ليلة عيدهم، كانت ساعة البرهان العمليّ قد أزفت.

اغتنم إبراهيم فرصة ذهاب قومه إلى الاحتفال بالعيد، وذهب إلى

---

(1) سقيم: مريض بمرض صعب.

المعبد مترقِّباً، هل هناك من أحد؟!

لا، الجميع ذهبوا للاحتفال.

فتناول فأساً قريباً وأدخله معه إلى المعبد الكبير حيث تقوم جميع التماثيل.

وابتدأ حواره مع التماثيل مستهزئاً فقال لهم: ألا تأكلون؟!

ولما لم يجبه أحد قال: ما لكم لا تنطقون؟!

بعد ذلك تناول الفأس الذي بحوزته، وانهال ضرباً على التماثيل محطِّماً إيَّاها، وقد أمدَّه ربه بقوَّة كبيرة، حتى أتى عليها كلّها فجعلها خراباً وحطاماً، وجعلها متناثرة في أرض المعبد. ﴿فَرَاغَ عَلَيْهِمْ ضَرْبًا بِالْيَمِينِ﴾ [الصافات: 93].

ولكنه أبقى على كبير التماثيل الموجود في المعبد وعلق الفأس في رقبته. ﴿فَجَعَلَهُمْ جُذَاذًا إِلَّا كَبِيرًا لَهُمْ لَعَلَّهُمْ إِلَيْهِ يَرْجِعُونَ﴾ [الأنبياء: 58].

وعندما عاد الناس من الاحتفال جاؤوا إلى معبدهم ليتقرَّبوا من تماثيلهم، وما كادوا يدخلون حتى راعهم ما رأوا.

لقد رأوا المعبد وقد هُشِّمَت تماثيلُهم. وبدأوا يصرخون:

من فعل هذا بآلهتنا؟

من فعل هذا بالمعبد؟

وعلا صياحُهم واستغرابُهم!

فقالوا لبعضهم البعض: سمعنا فتًى يذكرهم يقال له: إبراهيم فهو الذي فعل هكذا بالآلهة!

وجاءوا بإبراهيم على أعين الناس يسألونه:

أأنت فعلت هذا بآلهتنا يا إبراهيم ؟!

فأجاب: إن لم أكن أنا فعلته، فمن فعله؟!

أكبير الآلهة؟!

سلوهم من فعل هذا بكم!.

فما كان من إبراهيم إلا أن أتاهم بالبرهان العقليّ على سؤالهم.

فنظروا متعجّبين إلى إبراهيم وإلى جوابه .

وأضاف إبراهيم: اسألوهم إن كانوا ينطقون. فبيّن لهم بهذا عجز آلهتهم عن الكلام، وعن العمل، وردّهم إلى عقولهم فحكموا على أنفسهم بالظلم.

وأراد من جوابه لهم، أن يفهمهم بالبرهان العمليّ، أن التماثيل لا تسمع ولا تجدي نفعاً أو ضرراً لأحد.

قال تعالى: ﴿قَالُوٓاْ ءَأَنتَ فَعَلْتَ هَٰذَا بِـَٔالِهَتِنَا يَٰٓإِبْرَٰهِيمُ ﴿٦٢﴾ قَالَ بَلْ فَعَلَهُۥ كَبِيرُهُمْ هَٰذَا فَسْـَٔلُوهُمْ إِن كَانُواْ يَنطِقُونَ ﴿٦٣﴾﴾ [الأنبياء: 62-63].

﴿فَرَجَعُوٓاْ إِلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ فَقَالُوٓاْ إِنَّكُمْ أَنتُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ﴾ [الأنبياء: 64]. ثم عادوا إلى باطنهم وضلالهم فقالوا: أنت تعلم أن الأصنام لا تنطق، ﴿ثُمَّ نُكِسُواْ عَلَىٰ رُءُوسِهِمْ لَقَدْ عَلِمْتَ مَا هَٰٓؤُلَآءِ يَنطِقُونَ﴾ [الأنبياء: 65].

ساعتئذ وجّه إبراهيم إليهم الكلام و﴿قَالَ أَفَتَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَنفَعُكُمْ شَيْـًٔا وَلَا يَضُرُّكُمْ ﴿٦٦﴾ أُفٍّ لَّكُمْ وَلِمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ ۖ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿٦٧﴾﴾ [الأنبياء: 66-67].

3 - حرق إبراهيم:

بعد تلك البراهين الساطعة والأمثلة الحسّية التي أتى بها إبراهيم

لقومه، وعلى كافَّة مستوياتهم، لم يؤمنوا بما جاء به. بل إنَّهم نقموا عليه، وأرادوا التخلُّص منه بأيَّة وسيلة ممكنة، خاصة عندما عمل على تحطيم تماثيلهم التي يعبدون.

فأجمعوا جميعاً على الانتقام منه. ولكن كيف ينتقمون منه؟

اقترح بعضهم أن يكون الانتقام منه بالقتل، واقترح البعض الآخر أن يكون بالإحراق، ليكون عبرة لغيره، ولأن الموت بالإحراق يكون أشدُّ إيلاماً من القتل العادي الذي يميت الإنسان بسرعة، فـ﴿قَالُواْ حَرِّقُوهُ وَٱنصُرُوٓاْ ءَالِهَتَكُمۡ إِن كُنتُمۡ فَٰعِلِينَ﴾ [الأنبياء: 68].

واستقرَّ رأي الجميع على حرقه، و﴿قَالُواْ ٱبۡنُواْ لَهُۥ بُنۡيَٰنٗا فَأَلۡقُوهُ فِي ٱلۡجَحِيمِ﴾ [الصافات: 97].

وبدأ الإعداد لإحراق إبراهيم، عمل الناقمون منه بالتعاون مع بعضهم البعض لتجهيز هذه المحرقة.

وبدأ كل واحد بما يستطيع من حمل الحطب، ووضعه في مكان المحرقة. استعداداً لليوم الموعود.

وقيل: إن إعداد المحرقة استمر شهراً كاملاً حتى تم تجهيزها. وكان منظرها يُدِبُّ الرعب في النفوس.

أما إبراهيم فكان صادقاً مع ربِّه ولا يهمُّه في الله لومة لائم.

وجاء اليوم الموعود... وحضر الناس... جميع الناس... من بني قومه. وعلى رأسهم الكهنة... وكبار رجال الدولة، وجيء بالمنجنيق: آلة قذف. وأُحْضِرَ إبراهيم ليراه الناس في هذا اليوم المميَّز.

ووضع في المنجنيق بعد أن ربطت يداه ورجلاه بالحبال، وأضرمت

النيران في المحرقة. وقبل أن يقذف في النار أتاه ملك الوحي... جبريل فقال: يا إبراهيم ألك حاجة أقضيها لك؟

فكان جواب إبراهيم المستسلم لقضاء ربّه: أما منك فلا.

ويقصد بذلك كما أنّي مخلوق فأنت مخلوق، وإن كان الله قد أذن لي بالموت حرقاً، فأنت لا تستطيع أن تمنع عني قضاء الله وقدره لأنك مخلوق مثلي.

عندئذ قال جبريل: يا إبراهيم اطلب من الله ما تريد.

قال إبراهيم: علمه بحالي يغنيه عن سؤالي، وحسبي الله ونعم الوكيل.

فما كان من ربِّ العزَّة إلّا أن أمر النار بعدم التعرُّض لخليله إبراهيم، وقال لها: ﴿يَٰنَارُ كُونِي بَرۡدٗا وَسَلَٰمًا عَلَىٰٓ إِبۡرَٰهِيمَ﴾ [الأنبياء: 69].

وأطلق إبراهيم وقذف من المنجنيق إلى النار التي أمرها خالقها بعدم التعرُّض لخليله.

وكانت من شدَّة حرارتها أن الناس ابتعدوا من حولها إلى مسافات بعيدة.

وأخذت النار تأكل ما في المحرقة من الحطب، ولم تتعرض لإبراهيم في شيء، ولكنها أحرقت قيوده فقط.

كيف لا، وقد أمرها ربُّها بعدم التعرُّض له. بل أن تكون برداً وسلاماً على خليله. ولو أمرها أن تكون برداً فقط لكان إبراهيم قد مات من شدَّة البرد. ولكنَّه أمرها بأن تكون سلاماً عليه، فلا تكون شديدة البرودة أو تؤذيه بإحراق.

فكان في النار سليماً معافاً، يسبح ربَّه ويحمده على ما أنعم عليه من

السلامة في هذا الموقف العظيم.

أما الناس من حول المحرقة فكانوا يبتعدون عنها من شدَّة اللهب، وقد علا وجوههم وثيابهم الدخان والغبار الأسود.

وكانوا ينتظرون أن يروا إبراهيم مشوهاً من شدَّة الاحتراق بعد أن يكون جثَّة هامدة .

ولكن ماذا حصل؟

بعد أن خَفَّ لهيب النيران هالهم ما رأوا . . . لقد رأوا إبراهيم يخرج من بين تلك النيران سليماً معافاً. ليس عليه شيء من آثار الحريق، حتى ولا أيّ غبار أسود، مع أن النار مستعرة من حولهم، ووجهه يتلألأ نوراً، وثيابه كما هي لم يتغيَّر حالها. ففزعوا وتركوه.

قال تعالى عن ذلك الموقف: ﴿فَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِۦٓ إِلَّآ أَن قَالُواْ ٱقْتُلُوهُ أَوْ حَرِّقُوهُ فَأَنجَىٰهُ ٱللَّهُ مِنَ ٱلنَّارِ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ [العنكبوت: 24].

وقال تعالى: ﴿قَالُواْ حَرِّقُوهُ وَٱنصُرُوٓاْ ءَالِهَتَكُمْ إِن كُنتُمْ فَٰعِلِينَ ﴿٦٨﴾ قُلْنَا يَٰنَارُ كُونِى بَرْدًا وَسَلَٰمًا عَلَىٰٓ ﴿٦٩﴾ إِبْرَٰهِيمَ وَأَرَادُواْ بِهِۦ كَيْدًا فَجَعَلْنَٰهُمُ ٱلْأَخْسَرِينَ ﴿٧٠﴾﴾ [الأنبياء: 68-70].

4 - الحوار مع الملك:

من الحوارات العمليَّة المقنعة في حياة إبراهيم أيضاً، ما كان من محاورته مع ملك البلاد.

ذلك أن الناس قد تناولوا الكلام عن إبراهيم في مجالسهم، حتى طارت سمعته إلى الملك. وقد أخبره الناس ما جاء به، وما يدعو له من

الدين الجديد، وهو غير ما اعتادوا. وأن هذا الدين يدعو إلى وحدانية الله ونبذ عبادة التماثيل.

فأرسل له الملك للمثول بين يديه، وكان قد اشتهر عنه التكبر والتعنُّت. ولما وصل إبراهيم إلى البلاط الملكيّ، دخل عليه دخول الواثق بربِّه، ودار بينهما الحوار التالي:

فقال الملك: أأنت إبراهيم الذي يقول إنَّه يدعو إلى دين جديد ينبذ عبادة التماثيل التي اعتاد على عبادتها الآباء والأجداد؟

قال إبراهيم بأدب المؤمن: نعم.

قال الملك: ماذا يفعل ربك ولم نستطع أن نفعله نحن؟

قال إبراهيم: ﴿رَبِّيَ ٱلَّذِى يُحْىِۦ وَيُمِيتُ﴾.

نظر الملك إلى إبراهيم باستهزاء وقال: أنا أستطيع أن أفعل ذلك، أنا أحيي وأميت.

قال إبراهيم: كيف ذلك؟

قال الملك: آتي بشخص محكوم عليه الإعدام وأعفو عنه فأكون قد وهبته الحياة. وآتي بشخص بريء فأحكم عليه بالإعدام فأكون قد أَمَتُّه.

عندئذ اغتاظ إبراهيم من هذا الملك المغرور، وأراد أن يأتيه بالبرهان الحسيِّ، الذي يشاهده أمامه ويفحمه فيه.

فقال للملك: إنَّ الله يأتي بالشمس من المشرق فأتِ بها من المغرب.

ترى ماذا كان جواب الملك حينها؟

بُهِتَ وجمد ولم يدر جواباً. ولكنه ظل على كفره وتعنُّته. انظر إلى ذلك الحوار في كتاب الله. ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِي حَاجَّ إِبْرَاهِيمَ فِي رَبِّهِ أَنْ آتَاهُ اللَّهُ الْمُلْكَ إِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّيَ الَّذِي يُحْيِي وَيُمِيتُ قَالَ أَنَا أُحْيِي وَأُمِيتُ قَالَ إِبْرَاهِيمُ فَإِنَّ اللَّهَ يَأْتِي بِالشَّمْسِ مِنَ الْمَشْرِقِ فَأْتِ بِهَا مِنَ الْمَغْرِبِ فَبُهِتَ الَّذِي كَفَرَ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ﴾ [البقرة: 258].

فجميع تلك الحجج والبراهين العقلية التي أتى بها إبراهيم، هي بتقدير الله. ﴿وَتِلْكَ حُجَّتُنَا آتَيْنَاهَا إِبْرَاهِيمَ عَلَى قَوْمِهِ نَرْفَعُ دَرَجَاتٍ مَنْ نَشَاءُ إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ عَلِيمٌ﴾ [الأنعام: 83].

هجرة إبراهيم:

بعد حادثة الحرق ونجاة إبراهيم منها، ومقابلة الملك، قرَّر الرحيل عن بني قومه. والقيام بالدعوة إلى الله في مكان آخر.

وهجرة الأنبياء وترك مواطنهم لا تكون إلا بوحي من الله.

قال تعالى: ﴿فَأَرَادُوا بِهِ كَيْدًا فَجَعَلْنَاهُمُ الْأَسْفَلِينَ ﴿٩٨﴾ وَقَالَ إِنِّي ذَاهِبٌ إِلَى رَبِّي سَيَهْدِينِ ﴿٩٩﴾﴾ [الصافات: 98-99].

وذهب إبراهيم مهاجراً إلى أرض الله. فزار عدة مناطق كفلسطين وغيرها. وكان حيثما حلَّ وارتحل يدعو إلى الله ويأمر بالمعروف وينهى عن المنكر.

ومن فلسطين أوحى الله إليه بالذهاب إلى مصر. فهاجر إلى هناك، وفي هذه الرحلة تعرَّض لامتحان كبير. وكان قبلاً قد امتحن بحادثة الإحراق في نفسه، والتي أسفرت عن نجاة الله له.

وفي هذه المرَّة ما هو نوع الامتحان الذي تعرَّض له في أرض مصر؟

إنَّه امتحان من نوع آخر . . . امتحان يمسُّه ويمسُّ من هاجرت معه سارة. . . زوجته وشريكة عمره، والتي آمنت بدعوته وهاجرت معه حيثما ذهب وحيثما أمره ربه.

وصل إبراهيم إلى مشارف مصر وتقصَّى عن أخبارها، وعلم أن فيها ملكاً فرعونيًا جباراً يأخذ كل امرأة جميلة تدخل أرضه. وإن كان معها زوجها، أخذها وقتل زوجها.

فجاء إلى سارة وكانت الوحيدة المؤمنة برسالة التوحيد . . . برسالة الإسلام. قال لها بما علم من أمر الملك الجبَّار، وقال لها: إن سألك أحد من هذا الذي معك فقولي له إنَّك أختي . . .أي أختي في الإسلام.

وسارا معاً في أرض مصر . . . وبعد قليل جاء رجال الملك وقبضوا على إبراهيم وعلى زوجه سارة.

ولما سُئلت سارة عمن معها :أي إبراهيم، قالت: هو أخي وتعني أخاها في الإسلام.

ولما كانت فائقة الجمال استأثرها الملك لنفسه وأراد بها شرًا. وأُبعدت عن إبراهيم.

عندئذٍ عرف إبراهيم ما يريد الملك الجبار منها، فخاف عليها، وذهب يدعو الله ويصلِّي كي لا يصيبها منه أذًى.

واستجاب الله لخليله ولم يستطع ذلك الفرعونيُّ أن يمسَّها بسوء.

ولكن كيف حصل ذلك؟

جاء الملك واختلى بسارة، وما إن حاول أن يرفع يده إليها ليلمسها، فإذا بيده قد يبست. فخاف وعلم أن هناك شيئاً ما قد أمسك بيده، ومنعه أن يقترب منها.

فقال لها: ادعي الله أن تعود يدي إلى طبيعتها وأخلِّي سبيلك.

فدعت سارة ربَّها أن تعود يده إلى حالتها الطبيعية، واستجيب دعاؤها وعادت يده كما كانت.

ولكن هل وَفَى الملك بوعده لها؟

إنه لم يفِ بوعده؛ بل حاول الاقتراب منها مرة أخرى. وما إن حاول ذلك حتى يبست يده أشدَّ من المرَّة السابقة.

فقال لسارة: ادعي الله أن يرسل يدي ولن أضرَّك.

ففعلت، واستجاب الله لدعائها. وعادت يد الملك لطبيعتها كما في المرة الأولى.

ولكن الملك الجبار لم يتعلَّم. فحاول أن يلمسها في المرَّة الثالثة، وما إن همّ بالاقتراب منها حتى جمدت يده أشدَّ من المرَّتين السابقتين. وابتدأ يصرخ من الألم، وعاهدها هذه المرَّة صادقاً، فدعت ربَّها بينما كان إبراهيم أيضاً يصلِّي ويدعو ربَّه ليفرِّج عنهما هذا الابتلاء المرُّ.

فاستجاب ربُّ العزَّة وأطلقت يد الملك ووفى بعهده، وتركها تذهب إلى إبراهيم. وأعطاها هاجر الأميرة العربيَّة التي وقعت في الأسر عنده، وهي بنت ملك من ملوك القبط.

وخرجت سارة لتلقى زوجها، بعد أن فرَّج عنها هذا الابتلاء، وبرفقتها هاجر. وقصَّت على إبراهيم ما كان من أمر الملك معها. فحمدا الله وانطلق الجميع.

أما الملك فقد قال لمن أتى بسارة: ما أتيتوني بإنسان ولكن بشيطان على شكل إنسان.

أولاد إبراهيم:

خرج إبراهيم من أرض مصر برفقة سارة وهاجر، ومكثوا جميعاً في أرض فلسطين ما شاء الله لهم.

وحنّ إبراهيم للولد. وكانت زوجه سارة عاقر لا تلد. ولكنَّها أحبَّت أن تسرّ قلب إبراهيم. ولم تبخل عليه بأن تزوِّجه أخرى لعلَّه يرزق بالذُّرِّيَّة. فزوَّجته هاجر التي أنجبت له إسماعيل (أبو العرب).

ومن شدة حبِّه لابنه فقد امتحنه الله به هذه المرة بعد أن امتحنه بنفسه في موضوع الإحراق، وفي المرة الثانية بزوجه سارة، وفي هذه المرة بذبح ابنه.

فهل يفي إبراهيم بالوعد أم لا؟

وقصَّة ذلك أن إبراهيم رأى رؤيا وهو نائم أنه يقوم بذبح ابنه. ورؤيا الأنبياء وحي وأمر من الله. فعرض الأمر على إسماعيل البارِّ بوالديه والمؤمن بربِّه فكان جوابه الامتثال لأمر الله.

وحينما أخذ إبراهيم السكين لينحر بها ولده وفلذة كبده امتثالاً لمرضاة الله، فُدي الابن البارُّ بخروف كبير عظيم أرسله الله فداء عن الذبيح إسماعيل.

انظر إلى قوله تعالى: ﴿وَفَدَيْنَٰهُ بِذِبْحٍ عَظِيمٍ﴾ [الصافات: 107].

بعد هذا، أكرم الله إبراهيم بأن جعله يتشرَّف ببناء الكعبة - أول بيت بني في الأرض لعبادة الله - برفقة ولده إسماعيل. وكان كلما طلب منه خالقه أمراً أجاب بالسمع والطاعة، فأكرمه الله بأن جعله للناس إماماً،

﴿وَإِذِ ٱبْتَلَىٰٓ إِبْرَٰهِـۧمَ رَبُّهُۥ بِكَلِمَٰتٍ فَأَتَمَّهُنَّ ۖ قَالَ إِنِّى جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا﴾ [البقرة: 124].

أما سارة فكان لها شيء عجيب. وليس هناك من عجب في قدرة الله القادر على كل شيء.

تُرى ماذا حصل معها؟

كانت عاقراً لا تنجب، وبلغت سنَّ الكهولة، وهي السنُّ التي لا تعود فيها المرأة قادرة على إنجاب الأولاد. وقطعت أملها من ذلك. ولكن الله إذا أراد شيئاً فإنما يقول له كن فيكون.

وفي يوم من الأيام، وبينما كان إبراهيم يقوم ببعض شؤونه، إذا به يمرّ بجواره ثلاثة من الضيوف الغرباء.

فقالوا له: سلام.

أجابهم بالتحية، وقال: سلام.

وقد اشتهر عنه شدَّة الكرم، فقال في نفسه: ربَّما كانوا جائعين.

فاستأذن منهم وقام إلى زوجته سارة وقام بواجب الضيافة. فأحضر عجلاً كبيراً ونحره لضيوفه وشواه على النار وقرَّبه لهم. واستعد للأكل بينما ضيوفه لا يمدُّون أيديهم إلى الطعام. فاستغرب أمرهم وقال: ألا تأكلون؟! وقد أوجس منهم خيفة، إذ أنه من المعروف في العادات القديمة، أن من قُرِّب له طعامٌ من الضيوف ولم يأكل، يكون يريد شرًّا بصاحب البيت.

فخافهم إبراهيم وهو عجوز ضعيف وهم شباب أشداء أقوياء. وشعروا بأنه خائف منهم. فكشفوا عن حقيقتهم بأنهم ملائكة مرسلون من عند الله.

ومن المعروف أن الملائكة تتشكَّل بصورة الإنسان ولكنها لا تأكل الطعام.

حينئذٍ اطمأن إبراهيم. وسألهم عن المهمة التي جاءوا من أجلها.

فقالوا له: إنا أتيناك نبشِّرك بابن لك سيولد من سارة اسمه: إسحاق، وأرسلنا لتدمير قرية لوط، لأنَّهم بغوا كثيراً في الأرض، وأخبروه: أن لوطاً من الناجين مع المؤمنين معه.

وكانت سارة تقف بالقرب من الضيوف، وسمعت ما يقولون فضحكت من الخبر ولطمت وجهها، و﴿قَالَتْ يَٰوَيْلَتَىٰٓ ءَأَلِدُ وَأَنَا۠ عَجُوزٌ وَهَٰذَا بَعْلِى شَيْخًا ۖ إِنَّ هَٰذَا لَشَىْءٌ عَجِيبٌ﴾ [هود: 72]. وكان أحد الملائكة قال: إن إسحاق سيكبر وسيولد له ولد اسمه: يعقوب، ﴿وَٱمْرَأَتُهُۥ قَآئِمَةٌ فَضَحِكَتْ فَبَشَّرْنَٰهَا بِإِسْحَٰقَ وَمِن وَرَآءِ إِسْحَٰقَ يَعْقُوبَ﴾ [هود: 71].

وتعجَّب إبراهيم من الخبر متسائلاً و﴿قَالَ أَبَشَّرْتُمُونِى عَلَىٰٓ أَن مَّسَّنِىَ ٱلْكِبَرُ فَبِمَ تُبَشِّرُونَ ﴿٥٤﴾ قَالُوا۟ بَشَّرْنَٰكَ بِٱلْحَقِّ فَلَا تَكُن مِّنَ ٱلْقَٰنِطِينَ ﴿٥٥﴾ قَالَ وَمَن يَقْنَطُ مِن رَّحْمَةِ رَبِّهِۦٓ إِلَّا ٱلضَّآلُّونَ ﴿٥٦﴾﴾ [الحجر: 54-56].

وكما تعجَّب إبراهيم من الأمر تعجَّبت سارة، وخاطبها الملائكة و﴿قَالُوٓا۟ أَتَعْجَبِينَ مِنْ أَمْرِ ٱللَّهِ ۖ رَحْمَتُ ٱللَّهِ وَبَرَكَٰتُهُۥ عَلَيْكُمْ أَهْلَ ٱلْبَيْتِ ۚ إِنَّهُۥ حَمِيدٌ مَّجِيدٌ﴾ [هود: 73].

وحملت سارة في هذه السنِّ المتأخرة بقدرة القادر جل وعلا. وولدت إسحاق.

وترجمتها في العبرية «يضحك» والمقصود منها أن كل من سمع بولادة هذا الولد من أبوين شيخين يضحك لما في هذه الولادة من الغرابة.

وبعد أن كبر إسحاق وصار في سنِّ الرجولة تزوَّج وأنجب ولده يعقوب. وقرَّت عين سارة وإبراهيم بهما وتحقَّق وعد الله مما بُشِّرَا به.

انظر إلى قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ جَآءَتْ رُسُلُنَآ إِبْرَٰهِيمَ بِٱلْبُشْرَىٰ قَالُوا۟ سَلَٰمًا ۖ قَالَ سَلَٰمٌ ۖ فَمَا لَبِثَ أَن جَآءَ بِعِجْلٍ حَنِيذٍ ﴿٦٩﴾ فَلَمَّا رَأَىٰٓ أَيْدِيَهُمْ لَا تَصِلُ إِلَيْهِ نَكِرَهُمْ وَأَوْجَسَ مِنْهُمْ خِيفَةً ۚ قَالُوا۟ لَا تَخَفْ إِنَّآ أُرْسِلْنَآ إِلَىٰ قَوْمِ لُوطٍ ﴿٧٠﴾ وَٱمْرَأَتُهُۥ قَآئِمَةٌ فَضَحِكَتْ فَبَشَّرْنَٰهَا بِإِسْحَٰقَ وَمِن وَرَآءِ إِسْحَٰقَ يَعْقُوبَ ﴿٧١﴾ قَالَتْ يَٰوَيْلَتَىٰٓ ءَأَلِدُ وَأَنَا۠ عَجُوزٌ وَهَٰذَا بَعْلِى شَيْخًا ۖ إِنَّ هَٰذَا لَشَىْءٌ عَجِيبٌ ﴿٧٢﴾ قَالُوٓا۟ أَتَعْجَبِينَ مِنْ أَمْرِ ٱللَّهِ ۖ رَحْمَتُ ٱللَّهِ وَبَرَكَٰتُهُۥ عَلَيْكُمْ أَهْلَ ٱلْبَيْتِ ۚ إِنَّهُۥ حَمِيدٌ مَّجِيدٌ ﴿٧٣﴾﴾ [هود: 69 - 73].

ذريّة إبراهيم أنبياء:

بعد هذه الحياة العامرة بالجهاد أكرم الله خليله، بأن جعل النبوَّة في ذرِّيَّته.

فهذا إسماعيل أبو العرب كان في أرض مكَّة وما حولها يدعو إلى الله.

وهذا إسحاق في أرض فلسطين يدعو إلى الله.

وإسماعيل كان من ذريته خاتم الأنبياء محمد ﷺ.

وإسحاق كان من ذريته يعقوب والد أسباط بني إسرائيل الذين وَلَدوا أيضاً الأنبياء. لذلك لقب إبراهيم: بأبي الأنبياء.

وفاة إبراهيم:

بعد هذه الحياة الحافلة بالأحداث التي قضاها إبراهيم على هذه الأرض وافته المنيَّة عن عمر يناهز مائة وخمسة وسبعين عاماً. ودفن في

فلسطين بجوار سارة التي توفّيت قبله في مغارة يقال لها: المكفيلة.

وعندما علم إسماعيل بوفاة أبيه، أتى من مكّة إلى فلسطين وعزّى أخاه إسحاق بموت أبيه وزار قبر والده.

العبر من قصّة إبراهيم:

يؤخذ من قصّة إبراهيم عدة عبر، منها:

1 - على كل مؤمن أن يكون رحيماً بوالديه حتى ولو كانا من القوم الكافرين لقوله تعالى: ﴿وَصَاحِبْهُمَا فِي ٱلدُّنْيَا مَعْرُوفًا﴾ [لقمان: 15].

2 - على الداعية إلى الله أن يحتذي بإبراهيم في محاورته مع الآخرين، وأن يتميّز بالبرهان العقليّ في مناقشته إن استطاع تنفيذ الحجّة بالبرهان العمليّ كتفنيد إبراهيم أمر عبادة قومه، عندما يذهب كوكب ويأتي أكبر منه. وتكسيره للتماثيل وجعله الفأس في رقبة الكبير. ولما سألوه من فعل هذا بآلهتنا؟ قال: اسألوهم إن كانوا ينطقون!. وحواره مع الملك وإفحامه بقدرة الله حينما قال له: ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ يَأْتِي بِٱلشَّمْسِ مِنَ ٱلْمَشْرِقِ فَأْتِ بِهَا مِنَ ٱلْمَغْرِبِ﴾ [البقرة: 258].

3 - على الداعية أن لا يخشى في الله لومة لائم، أسوة بإبراهيم الذي لم يخشَ قومه من ردّة فعلهم حينما حطّم أصنامهم. حتى الملك لم يخشاه؛ بل وقف في وجهه وقفة حقٍّ، ونصر دين ربّه، بأن أفحمه بالإجابة فلم يدر الملك الكافر بما يجيب.

4 - إن الحقَّ منتصر ولو بعد حين. كما حصل مع إبراهيم بعد محنة الإحراق مثلاً، كان المنتصر هو الحقُّ، المتجلّي بخروج إبراهيم معافاً،

وخسر قومه المعركة ﴿وَأَرَادُواْ بِهِۦ كَيْدًا فَجَعَلْنَـٰهُمُ ٱلْأَخْسَرِينَ﴾ [الأنبياء: 70]. لذا على المؤمن أن لا يصاب بالإحباط إذا ما دعا إلى الله ولم يلق نتيجة. بل عليه أن يعلم أن نصر الله آت ولو بعد حين. فمثلاً الشهداء الذين يستشهدون في فلسطين، يرى الناظر أنهم يموتون ويحسب أن الله متخلٍّ عنهم. بالطبع لا، فإن هذا الأمر هو خير لهم، وذلك بأنَّ لهم الشهادة والجنَّة، بعد هذه الحياة الفانية. وإنَّ نصر الله آت بإذنه، ولا ندري متى يأتي، وعسى أن يكون قريباً.

5 - الصبرعلى البلاء، والتمثّل بإبراهيم الذي امتحن وصبر وتجلّى ذلك في:

أ - محنة الحرق.

ب - محنة زوجه سارة مع فرعون مصر.

ت - محنة ذبح ولده إسماعيل. من هنا يتجلّى للجميع أنَّ هذه الحياة مليئة بالمصاعب، والتحلّي بالصبر واجب على المؤمن كما تحلّى به إبراهيم.

6 - إنَّ الله يجزي الصابرين على صبرهم، ومثالاً على ذلك صبر إبراهيم الذي أكرمه الله بعد كل هذه الحياة بأن :

أ - جعله خليله.

ب - جعله ينجو من محنة الإحراق.

ت - جعل زوجه سارة تنجو من يد الكافر الفاجر فرعون مصر.

ث - جعله للناس إماماً.

ج - جعل النُّبوة في نسله فكان (أبو الأنبياء).

ح - أكرمه بكبش كبير فداء لولده الذبيح إسماعيل.

خ - جعله يتشرَّف ببناء الكعبة بمعاونة ولده إسماعيل.

د - جعله من أولي العزم من الرسل.

7 - الكرم من الصفات الحسنة التي يجب على المؤمن أن يتحلَّى بها، وكلٌّ على قدر استطاعته. كما كان من إكرام إبراهيم لضيوفه.